IUGJEPS
Vol 30, No 3, 2022, pp102-124
ISSN 2410-3179
مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الانسانية

تاريخ الإرسال (17-9-2021)، تاريخ قبول النشر (7-11-2021)

حضاراتٌ ذُكرت في القرآنِ الكريم (عواملُ قيامِها وانهيارِها)

اسم الباحث الأول: أ. سماح جمال البسيوني * 1

اسم الباحث الثاني: أ.د. صبحي رشيد اليازجي 2

[1] اسم الجامعة والبلد (للأول) الجامعة الإسلامية- غزة

[2] اسم الجامعة والبلد (للثاني) الجامعة الإسلامية- غزة

البريد الالكتروني للباحث المرسل:
E-mail address: mstfyabwslman35@gmail.com

https://doi.org/10.33976/IUGJIS.30.3/2022/4

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى بيان أثر بعض العوامل المُؤثرة في قيام الحضارات أو انهيارها عبر التاريخ، كما وذكرنا عدداً من السنن الكونية التي تحكم حركة الحضارات، وسير المجتمعات؛ لتبقى الظاهرة الحضارية أضخم إنجازات الكائن البشري.

وحاول الباحثان الاستدلال ببعض الحضارات المذكورة في القرآن الكريم كنماذج؛ لاكتشاف السنن الكونية والعوامل البشرية التي نبه إليها القرآن وبيّن أثرها في العمران البشري، وتعمير الأرض، وترقية الحياة؛ للنهوض بالخلافة.

وتحقيقاً لذلك كان هذا البحث مكوناً من تمهيد وثلاثة مباحث، وخاتمة اشتملت على أبرز النتائج والتوصيات.

كلمات مفتاحية: (الحضارات، انهيار الحضارات ، عوامل قيام، نهوض)

Civilizations mentioned in the Holy Quran (factors of its rise and fall)

Abstract:

This study aims to demonstrate the impact of some factors affecting the rise or collapse of civilizations throughout history. We also mentioned a number of cosmic norms that govern the movement of civilizations and the functioning of societies; To remain the civilization phenomenon is the greatest achievement of the human being.

The researchers tried to infer some of the civilizations mentioned in the Holy Qur'an as models; To discover the cosmic norms and human factors that the Qur'an drew attention to and their impact on human urbanization, the reconstruction of the earth, and the promotion of life; to advance the caliphate.

To achieve that, this research consisted of an introduction, three chapters, and a conclusion that included the most prominent results and recommendations.

Keywords: (Civilizations - The collapse of civilizations - Rise factors - Getting up)

المقـدمة

الحمد لله الرحمن الرحيم، ذي السـلطان العظيم، والمن القديم، والوجه الكريم، والكلمات التامات، والدعوات المسـتجابات، والمشيئات النافذات، الذي لا يتم شيء من ذوي الإرادات إلا بإذنه وتيسيره، وإمداده بالحول والقوة، فإنه لا حول ولا قوة إلا به.

والصلاة والسلام على أنبل باني حضارة عرفها التاريخ محمد بن عبد الله العربي الهاشمي الأمين، الذي أُنزل عليه القرآن المبين، ومثله معه من وحي وتبيين، والرضى التام على أصحابه الكرام الذين بنوا صرح تلك الحضارة الشامخة بدمائهم وجهودهم فكان لهم الفضل على كل من نعُم بخيراتها إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن مما يشهد بالقيمة الحضارية والثقافية لأمة ما، ما تحققه من مبادئ إنسانية زاهية، تتجاوز حدودها لتعم بإنسانيتها الآخرين، ولو خالفوا في الدين والجنس واللغة.

وإن المتأمل لآيات الكتاب الحكيم يجد فيه نماذج حية لبعض الحضارات التي مرت على التاريخ، كل حضارة جسدت واقعاً يعبر عن معتقدات أهلها، ومبينةً ما أنجزته من عمران مادي، وفي كل مرة تلفت الآيات القرآنية الانتباه إلى أهمية الجانب القيمي والسلوكي الذي يعد الميزان الذي يزن به الإسلام الحضارات؛ لأن القيم تنبع من عقيدة التوحيد، وهذا ما افتقدته كثير من الحضارات التي أفلت وسقطت؛ لذا فقد رأت الباحثة أن تختار بحثها بعنوان: **حضاراتٌ ذُكرت في القرآنِ الكريم (عواملُ قيامِها وانهيارِها)** وذلك في إطار دراسة تفسيرية موضوعية محكمة.

أولاً: مشكلة البحث

نظراً لما يدور في هذا الزمان الحديث عن التطور والحضارة والرقي، وقد سلط أهل كل ملة الضوء على حضارته وجلسوا يخططون لحاضر ومستقبل أمتنا العريقة، في ظل غياب وحدة الأمة وفرقتها وضعفها، لذا توجب وصف يعض الحضارات السابقة واستنباط عوامل قيامها وانهيارها؛ لأخذ العظة والعبرة.

ثانياً: أهمية البحث

تظهر أهمية هذا الموضوع من خلال عدة أمور أذكر أهمها:

1-تعلق هذا البحث بأشرف الكتب الذي يعدُّ الاشتغال به عبادة تقربنا إلى الله تعالى، قال رسول الله ﷺ: " **خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**" (1).

2-ارتباط موضوع البحث بواقع الأمة الإسلامية وبما تعانيه من تغول وظلم واستبداد ووصفها بالحضارة المتردية.

3-توضح الدراسة أن الصعود الحضاري يكون نتيجة ارتقاء فكري لأفراد المجتمع يؤدّي بدوره إلى تغيير اجتماعي عميق ينجم عنه تطور وصعود في كافة مناحي الحياة الاقتصادية والسياسية والفكرية.

ثالثاً: أسباب اختيار البحث

من أهم الأسباب التي دفعت الباحثة لاختيار هذا الموضوع:

1- خدمة القرآن الكريم وتقديم النصيحة لنفسي وللمسلمين، وأخص طلبة العلم منهم.

2- استجابةً لتوجيه أستاذي المشرف الأستاذ الدكتور: صبحي رشيد اليازجي – حفظه الله_ لدراسة هذا الموضوع .

4- حاجة الواقع الإسلامي الملحة لبعث الأمل في النفوس في ظل ما تعانيه من حالة التردي الحضاري.

(1) صحيح البخاري، البخاري، كتاب فائل القرآن، باب خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ، (6/ 192)، حديث رقم (5027).

5- إثراء المكتبة العلمية ببحث علمي محكم يتناول هذا الموضوع بشكل مستفيض في إطار دراسة تفسيرية موضوعية.

رابعاً: أهداف البحث

لهذا البحث أهداف وغايات عديدة أذكر أهمها:

1- ابتغاء مرضاة الله سبحانه وتعالى، فهو أسمى ما أرجوه من كتابة هذا البحث المتواضع.

2- بيان أن القرآن الكريم هو حبل الله المتين، ودستوره الخالد، ولا سبيل للنهوض إلا به.

3- إبراز دور القرآن الكريم في علاج القضايا المعاصرة والمستجدة، وإيجاد الحلول المناسبة لها.

خامساً: الدراسات السابقة

بعد البحث والتحري في الدراسات الجامعية والرسائل العلمية، لم أجد مَن أَفْرد هذا الموضوع بدراسة مستقلة، غير أنه توجد بعض الدراسات التي تناولت هذا الموضوع متفرقًا، ومن الدراسات المقاربة ما يلي:

1- على عتبات الحضارة – بحث في السنن وعوامل التخلق والانهيار، بتول أحمد جندية، الناشر: دار الملتقى للطباعة والنشر والتوزيع، سورية، 1432 هـ - 2011 م.

2- قوانين القرآن للحضارات دراسة قرآنية لأحداث التاريخ، خالد فائق العبيدي، دار الكتب العلمية، 2005م.

سادساً: منهجية البحث

اعتمد الباحثان في هذا البحث على المنهج الوصفي للتفسير الموضوعي في القرآن الكريم.

سابعاً: كلمات مفتاحية

حضارات – عوامل- نهوض- قيام- انهيار.

ثامناً: خطة البحث

يتكون البحث من تمهيد وثلاثة مباحث، تسبقهم مقدمة وتتلوهم خاتمة.

التمهيد: ويتحدث عن أهم عوامل قيام الحضارات.

المبحث الأول: عوامل قيام الحضارة عند ذي القرنين.

المبحث الثاني: عوامل قيام وانهيار الحضارة عند قوم عاد.

المبحث الثالث: عوامل قيام وانهيار الحضارة عند مملكة سبأ.

الخاتمة: حيث ذكر الباحثان أهم النتائج والتوصيات التي توصلا إليها من خلال البحث.

التمهيد

عوامل قيام الحضارات

لقد ذكر القرآن الكريم جملة من العوامل المُؤثرة في قيام الحضـــارات، حيث انقســـمت إلى أربعة عوامل، وهي عوامل عقدية، وسياسية، واجتماعية، واقتصادية، وبيانها كالتالي:

أولاً: عوامل عقدية

إن النصر والتمكين من سنن الله في الأرض، هي من وعود الله عز وجل التي شُوهد تأويلها بعد سنين من نزول الشواهد النقلية عليها، فوعد الله عز وجل من قام بالإيمان والعمل الصـــالح من هذه الأمة، أن يســتخلفه في الأرض، ويكون المتصــرف في تدبيرها، فلما تمكّن الإيمان في صــدور الصــف الأول من الأمة الإســلامية، فُتحت لهم مشــارق الأرض ومغاربها، وحصــل الأمن

والتمكين التام [1]، **قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ﴾ [النور: 55].**

ثانياً: عوامل سياسية

تلعب السياسة دوراً مفصلياً في قيام الحضارات، وقد شهد التاريخ على آثار السياسة في الدول والحضارات؛ لذلك جعل القرآن إقامة الحكم الإسلامي سبيلاً؛ لتحقيق سعادة الدنيا والآخرة، باعتبار الإسلام نظام شامل يتناول تحديد العلاقة بين العبد وربه، ونفسه، وبني جنسه؛ لذلك أوجب –جَلَّ شَأْنُهُ – علينا أن نتحاكم إلى ما أُنزل على رسوله، وأن نحكم به، وعلى المسلمين تنصيب حكومة تقيم فيهم أمر الله وترعاه، ويتعبد أفرادها بإقامة الحكم الإسلامي [2]، **قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: 50]**، والآية تحمل إنكاراً من الله تعالى على كل من خرج عن حكم الله المحكم المشـــتمل على كل خير، الناهي عن كل شر وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات [3].

ثالثاً: عوامل اجتماعية

الحضارة عبارة عن فضاء اجتماعي صلب، يعمل على تجميع الناس، وتقريبهم من بعضهم البعض، بشكل يؤدي إلى زيادة إنتاجهم وتحسين ظروفهم، وعلى ذلك فقد حظيت العوامل الاجتماعية بنصيب الأسد ذكراً في القرآن الكريم؛ لبروز دورها في صعود حضارة الإسلام، وتغلغلها في ثنايا المجتمع، حيث ركزت على تعزيز القيم الأخلاقية، والمبادرة الفاعلة [4]، والاعتزاز باللغة العربية.

رابعاً: عوامل اقتصادية

لا شك أن الاقتصاد سبب في صعود أي حضارة وإرغاد عيش أفرادها و تمكين دولتهم، ونلمس ذلك من صدور الأمر الإلهي إلى سيدنا آدم بالهبوط من الجنة إلى الأرض بهدف إعمار الكون والسعي في طلب الرزق، "فالأرض قرارٌ تستقرونه، وفراش تمتهدونه" [5]، قال تعالى: **﴿قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [الأعراف: 24].**

وبما أن الاقتصاد ركنٌ رئيسٌ في تطور الأمم وعمارة الأرض؛ لذلك اعتنى القرآن الكريم به، ووضع له أسساً تضبط عمله بما يحقق للفرد سد حاجاته، ويحفظ الأمن المجتمعي ويحقق الاستقرار، لأنّ العلاقة بين الاقتصاد والحضارة علاقة متلازمة [6]، قال تعالى: **﴿الذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ (قريش4).**

وبناءً على تلك العوامل فقد تنوعت الحضارات المذكورة في القرآن الكريم، حيث عرض القرآن الكريم تصنيفاً مجملاً لأنواع الحضارات، وبين عوامل قيامها وعوامل انهيارها، وذكر عليها نماذج واقعية من الأمم والأقوام السابقين، وبالتالي انقسمت المجتمعات حضارياً باعتبارات ثلاث وهي (العلو، والركود، والتردي).

(1) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، (ص: 573).

(2) انظر: المال والحكم في الإسلام، عبد القادر عودة، (ص: 88).

(3) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (3/ 131).

(4) المبادرة: "انطلاقة المؤمن ومسارعته إلى عمل صالح بحافز ذاتي من نفسه، بعد أن يتوافر في نفسه الميزان الأمين ليُحدد العمل الصالح من سواه، وليطمئن إلى أنه لا يتجاوز حدوده، ولا يعتدي على غيره، ولا يدخل في فتنة تغضب الله عز وجل" انظر: الحوافز الإيمانية بين المبادرة والالتزام، عدنان علي رضا النحوي، (ص:15).

(5) جامع البيان، الطبري، (12/ 358).

(6) انظر: أسس الاقتصاد الإسلامي في القرآن الكريم، ياسر محمود أبو حسين، (ص:4).

وقد وقف القرآن الكريم وقفات مطولة في الحديث عن الحضارات السابقة لحضارة الإسلام، ولو تأملنا الوصف القرآني لها سنجد أن كل حضارة انطلقت من منطلقات معينة في بناء صرحها بغضِّ النظر إن كانت صحيحة، أم فاسدة، وبنت عليها مستقبلها، ومظاهرها، واجتماعياتها، و بعد علوٍ واستقرار سارت نحو التسافل والتردي؛ لعدم أخذها بعوامل الصعود والاستمرار، وانحدرت في مستنقع الفساد العقدي أو الاقتصادي أو السياسي، كحضارة سبأ بمرحلتها الثانية وثمود وعاد وأصحاب الأيكة والفراعنة، فأذاقهم الله عز وجل هلاك الهزيمة والانهيار والضياع، وهذا الهلاك سنة باقية على الأمم حتى قيام الساعة[1].

المبحث الأول

عوامل قيام الحضارة عند ذي القرنين

ويتكون من مطلبين:

المطلب الأول: تحلي ذي القرنين بالأخلاق القيادية.

المطلب الثاني: توظيف العلم والقوة في عمل الخير.

مثلت إمبراطورية ذي القرنين الحضارية تجربة ناجحة في البناء، والتأسيس، والنمو، وكانت رافداً لحركة بعض الشعوب المتطلعة للنهوض، والسير في ركاب الحضارة الإنسانية.

فذو القرنين علم قرآني بارز، خلّد الله عزو جل ذكره في كتابه الخالد، قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ **[الكهف: 83]**، وقد دوَّن القرآن هذا السؤال لبيان محاولة تعجيز أهل الكتاب رسول الله ﷺ وإفحامه عن الرد، فأراد الله عز وجل أن يخيب ظنهم بطريق الوحي المتلو حكاية عن الله عزَّ وجلَّ أي سألوا في شأنه قرآناً، بإجابة مختصرة مفيدة؛ لتأييد رسول الله ﷺ وتصديقِه بإنجاز وعدِ الله له [2].

وذكرت كتب التفاسير أقوالاً كثيرة في تعريف شخصية ذي القرنين، خلاصتها قول الزحيلي حيث جمع أقوال المتقدمين والمتأخرين وحققها، فقد قال في خلاصتها: والأصح أنه رجل صالح حكم الدنيا غير الإسكندر المقدوني اليوناني، وهو على التحقيق الملك الفارسي الصالح «قورش» و سمي بذي القرنين؛ لأنه طاف قرني الدنيا شرقها وغربها، ويحتمل أنه لقب بذلك لشجاعته، ومع الاتفاق على إيمانه وصلاحه، لم يكن على الأصح نبياً [3] ، وقد وصفه د.علي الصلابي: ذو القرنين حاكم عادل صالح، طواف في الأرض، منفذ لأوامر ربه، قائم بين الناس بالعدل والإصلاح [4].

حيث استطاع ذو القرنين بتمكين الله له بناء إمبراطورية عظيمة، **قال تعالى:** ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ **[الكهف: 84]**، وتمكينه كان بالقوة والرأي والتدبير والسعة في المال والاستظهار بالعدد وعِظم الصيت، فقد أعطاه الله عز وجل ملكاً عظيماً، وسلطةً مطلقةً مدعمةً بالجنود وآلات الحرب والعلم، ومهّد له من الأسباب والوسائل ما يمكّنه من السيطرة وبسط النفوذ أين شاء وكيف شاء، فمَلك مشارقَ الأرض ومغاربَها، ودانت له البلاد، وخضعت له ملوك العرب والعجم [5].

(1) انظر: مقومات الحضارة وعوامل أفولها من منظور القرآن الكريم، عمار توفيق أحمد بدوي، (ص: 16).
(2) انظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود، (5/ 241).
(3) انظر: التفسير المنير، الزحيلي (16/ 20).
(4) انظر: الإيمان بالقدر، علي الصلابي، (ص153).
(5) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، (16/ 23).

ومن خلال إعمال العقل في آيات قصة ذي القرنين من سورة الكهف نستنبط بعض الأسباب التي يمكن أن نسميها **(عوامل قيام الحضارة عند ذي القرنين)**.

المطلب الأول

تحلي ذي القرنين بالأخلاق القيادية

تميزت شخصية ذي القرنين بأخلاق الإسلام العظيم، فكان مثالاً للقيادة الرشيدة،" فقصة ذي القرنين أحسن قصص الملوك" [1]، ومن أبرزها ما يلي:

أولاً: العدل في الحكم

يعد ذو القرنين نموذجاً مثالياً للحاكم المسلم العادل الفذ، الذي أنشأ إحدى أكبر إمبراطوريات الإسلام في العالم، والتي قامت على العدل أساساً لها، **قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: 58].**

والعدل من أُسس العقيدة الصحيحة التي تعد أنجح السبل لقيام وصعود الحضارات باستدامة مطلقة، فاقتران الإيمان بالعمل الصالح مؤشر ربط ثنائي؛ لنجاح الإنسان في صناعة الحضارة والصعود بها [2].

حيث شهد ذو القرنين ثلاث مجتمعات أثناء رحلته حول العالم، لم يصف القرآن الكريم أي حضارة تذكر لهم؛ لانعدام مقوماتها بالإطلاق، وهي (مجتمع الركود الإيماني، ومجتمع الركود العلمي، مجتمع الركود المعرفي)، فخّير الله عز وجل ذي القرنين بكيفية التعامل مع هذه الأنواع الثلاثة من المجتمعات، فكان من فقه السياسة الشرعية عند ذي القرنين، والتي استحق بها المدح والثناء، أن جعلهم قسمين: القسم الكافر الظالم تحصل له العقوبتان، في الدنيا و الآخرة، أما المؤمن فسيحسن له بلطف المعاملة [3].

حيث لم يعامل الأقوام التي طاف الأرض عليها بالظلم والجور والتعسف والتجبر والطغيان والبطش، وإنما عاملهم بالمنهج الرباني العادل [4]، قال تعالى: **﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاء الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ (الكهف: 87 – 88)**، والآية تحمل معنى التخيير الإلهي لذي القرنين، وهذا التخيير على معنى الاجتهاد في أصلح الأمرين، فكان الجزاء من جنس العمل [5]؛ لأن الناس الذين فتح بلادهم، ليسوا على مستوى واحد، ولا على صفات واحدة، ولذلك لا يجوز أن يعاملوا جميعاً معاملة واحدة، فمنهم المؤمن ومنهم الكافر.

يقول الشعراوي:" وهذه الآية تضع لنا أساس عملية الجزاء التي هي ميزان المجتمع وسبب نهضته، فمجتمع بلا جزاءات، تثيب المُجِد وتعاقب المُقَصِر مجتمع ينتهي إلى الفوضى والتسيب، فإن أَمِن الناسُ العقاب تكاسلوا" [6].

(1) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، (17/ 22).
(2) انظر: اقتران الإيمان بالعمل الصالح في القرآن الكريم ودلالاته الحضارية، د. عبد الرحمن حللي، (ص13).
(3) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، (ص 486).
(4) انظر: الإيمان بالقدر، علي الصلابي، (ص 154).
(5) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، (21/ 497).
(6) الخواطر، الشعراوي، (14/ 8985).

IUG Journal of Humanities Research (Islamic University of Gaza) / CC BY 4.0

ثانياً: التواضع:

وتتجلى عظمة القائد عندما يكون في علية القوم من أصحاب النفوذ والسلطان، ثم تراه يعيش مثل رعيته، ويلبس مثلهم[1]، فقد كان ذو القرنين مثالاً للقائد المتواضع، فعلى الرغم من القوة التي منحه الله إياها وعظم القدرات التي امتلكها، إلا أنه كان ينسب الفضل لله عز وجل قال تعالى: **﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ [الكهف: 98]**، يقول سيد قطب: ذو القرنين نموذج القائد الطيب، والحاكم الصالح، الذي مكنه الله في الأرض ويسر له الأسباب فاجتاح الأرض شرقاً وغرباً دون تجبر أو تكبر، لم يتخذ من الفتوحات وسيلةً للغنائم ولم يعامل البلاد المفتوحة معاملة الرقيق، أو سخَّر أهلها في أغراضه وأطماعه، بل ساعد المتخلفين ودرأ عنهم العدوان دون مقابل مستخدماً القوة التي يسرها الله له في التعمير والإصلاح وإحقاق الحق، ثم يرجع كل خير يحققه الله على يديه إلى رحمة الله موقناً أشد اليقين بأنه راجع إلى الله [2].

المطلب الثاني

توظيف العلم والقوة في عمل الخير

إن حركة ذي القرنين الدعوية والجهادية جعلته يحتك بالشعوب والأمم، ففتوحاته حملت مقاصد نبيلة، حيث كان الهدف منها هو جمع الشعوب في شرق الأرض وغربها تحت حكمه؛ لنشر العلم والحضارة وإحقاق الحق والعدل، وقد تكلم القرآن الكريم عن رحلاته بإيجاز، حيث لم يحدد القرآن موعد الانطلاق ولا موعد النهاية، بل بيّن حالة الشعوب، ودور ذي القرنين الإنساني والحضاري، وهي كالتالي:

أولاً: رحلة المغرب:

سار ذو القرنين في هذه الرحلة سيرة القوي المصلح في الأرض، فلما وصل إلى أقصى المغرب، رأى الشمس بالعين المجردة كأنها تغرب في البحر المحيط، وهذا شأن كل من انتهى إلى الساحل، فهو يراها كأنها تغرب فيه[3]، ووجد عندها قوماً قد تهيأ لحكمهم، وقد تردد في عقله وقلبه كيف يحكم، أيحكمهم بالعنف والقسوة، أم بالرفق واللين[4] ، قال تعالى: **﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: 86].**

فألهمه الله الحكمة، وحكم فيهم بمنتهى العدل وهو في قمة القوة، قال تعالى: **﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا (87) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف: 87- 88].**

ثانياً: رحلة المشرق:

بلغ ذو القرنين في هذه الرحلة " الموضع الذي تطلع الشمس عليه أولاً من معمورة الأرض" [5]، **قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ [الكهف: 90]**، حيث وجد قوماً في منتهى البدائية، كانوا في

(1) انظر: نماذج من المدارس القيادية، صبحي اليازجي، (ص13).
(2) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، (2293/4).
(3) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (5/ 191).
(4) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة، (9/ 4579).
(5) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، (3/ 292).

IUG Journal of Humanities Research (Islamic University of Gaza) / CC BY 4.0

مكان لا يثبت عليه بنيان، يعيشـــون في أســـراب عراة، ليس لهم طعام إلا ما أحرقت الشـــمس إذا طلعت، فإذا غربت خرجوا من أسرابهم يتراعون كما يتراعى الوحش في طلب معايشهم [1] .

فقد تعامل مع أهل المطلع كما كانت معاملته مع أهل المغرب، حيث قضـــى في هؤلاء كما قضـــى في أولئك، من تعذيب الظالمين والإحسان إلى المؤمنين، ونشر العلم ومساعدة الغير [2].

ثالثاً: رحلة ما بين السدين:

في هذه الرحلة وجد ذو القرنين قوماً قليلوا الفطنة، عديموا التدبير، ضـــعاف، "لا يَفْهمون كلامَ غيرِهم" [3]، **قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّـــدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ [الكهف: 93]**، والســـدين كما يقول ابن كثير: " هما جبلان متناوحان بينهما ثغرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك، فيعيثون فيهم فساداً، ويهلكون الحرث والنسل" [4].

فقام ببناء السد لهؤلاء الضـعاف وجعلهم يشـتركون معه في البناء، وأعانهم بخبرته وعلمه، قال تعالى: **﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: 95]**، ويُقصـد بالقوة: القوة البدنية من عمال وصـناع يحسـنون البناء والآلة [5]، وقال البقاعي: "**﴿فأعينونى بقوة﴾** أي آلات وعمال أتقوى بها في فعل ذلك، فإن أهل البلاد أخبر بما يصـــلح في هذا العمل" [6].

فصـهروا قطع الحديد المجتمع وقد جُعل الحديد على الحطب والحطب على الحديد حتى ساوى بين طرفي الجبلين بشكل متلاصـق ومتلاحم [7]، مسـتخدمين عملية النفخ بالكيران في الحديد، ثم إفراغ القطر عليه، والقطر هو النحاس، فاختلط والتصـق بعضُه ببعض، فصار جبلاً صَلْداً ما استطاع قوم يأجوج ومأجوج أن يعلُوه أو ينقُبوه؛ لارتفاعه وملاسته وصلابته وثخانتِه[8] قال تعالى: **﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الكهف: 96].**

ومن هذه الرحلة نستنبط دور ذي القرنين في إعطاء هؤلاء الضعاف الثقة في أنفسهم بأنهم يستطيعوا حماية أنفسهم، وترك الكسل جانباً؛ لأنه يفسد المجتمع، ويهدم أساس الحضارة؛ لذلك قوى ذو القرنين المستضعفين وجعلهم قادرين على حماية أنفسهم من العدوان وعدم الاعتماد على حماية أحد.

ويقول د. محمد يوســـف:" لقد أحببت قصـــة القرنين كثيراً؛ لثلاث صـــفات بارزة فيه هي ركيزة لكل حاكم يريد الحق والإصلاح، وهي: الإيمان والعدل والعمل، وهي صفات لابد منها حتى يستقر الأمر بالبشر، ويأمنوا على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم وأديانهم وعقولهم، وهي الكليات الخمس التي أمر الإسلام بحفظها" [9].

(1) انظر: زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، (3/ 107).
(2) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، (21/ 498).
(3) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، السمن الحلبي، (7/ 545).
(4) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (5/ 195).
(5) انظر: لباب التأويل في معاني التنزيل، الخازن، (3/ 178).
(6) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي، (12/ 136).
(7) انظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن، البغوي، (5/ 205).
(8) انظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (5/ 246).
(9) ذو القرنين القائد الفاتح والحاكم الصالح، د. محمد يوسف، (284).

IUG Journal of Humanities Research (Islamic University of Gaza) / CC BY 4.0

ونخلص من هذا المبحث بالقول: إن الإيمان والتوحيد والصـــلاح لا يُغني عن الأخذ بالأســـباب المادية والدنيوية؛ لأن إضــاعة أسـباب التمكين في الدنيا وعدم الأخذ بها نقص في الإيمان، وقصــور في مفهوم الصــلاح، وعليه فقد كان الوعد الإلهي بالتمكين لذي القرنين، نتيجة مترتبة لأخذه بالأسباب، قال تعالى: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ **[الكهف: 85]**، والسبب هو الوسيلة التي يحصل بها بلوغ المراد، وذو القرنين عمل بتلك الأسباب واستعملها على وجهها [1]، وأصل السبب الحبل، فاستُعين به لكل ما يتوصل به إلى شيء [2]، يقول السعدي: " هذه الأسباب التي أعطاه الله إياها، لم يخبرنا الله ولا رسوله بها، ولم تتناقلها الأخبار على وجه يفيد العلم" [3].

ومما سبق تبين أن حضارة ذو القرنين كانت نموذجاً لسنة الله في الأرض بالغلبة والتمكين، فهي وعد إلهي بالغلبة للأقوى إيمانياً أو مادياً، فقد تسلح ذو القرنين بسلاح الإيمان والسنان.

المبحث الثاني

عوامل قيام وانهيار الحضارة عند قوم عاد

ويتكون من مطلبين:

المطلب الأول: عوامل قيام حضارة عاد.

المطلب الثاني: عوامل انهيار حضارة عاد.

لقد قصَّ الله عز وجل في كتابه الكريم خبر أمة عاد في أكثر من موضــع، حيث ذكر خبرها في ســورة سُــمِّيت في القرآن باســم نبيِّها هود عليه الســلام، وفي ســورة أخرى سُــمِّيت باســم بلدهم الأحقاف [4] ، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ **[الأحقاف: 21]** وغيرها من المواضع القرآنية.

وعاد هي قبيلة النبي هود عليه السلام والمشهورة بهذا الاسم، والتي كانت تسكن الأحقاف، وهو مكان في جنوب الجزيرة العربية [5]، ويرجع أصــلها إلى جدهم إرم، وهو من ولد نوح عليه الســلام، وقد جاء من نســله الْعَمَالِقَةُ وَالْفَرَاعِنَةُ وَالْجَبَابِرَةُ وَالْمُلُوكُ الطُّغَاةُ وَالْعُصَاةُ، وقيل أن إِرَمَ يرجع إليه مجمع عاد وثمود فقد كان يقال عاد إرم وعاد ثمود [6] .

المطلب الأول

عوامل ازدهار حضارة عاد

برزت حضارة عاد على مسرح التاريخ بشكل لافت، حيث مثلت مجتمعاً متقدماً عُمرانياً، فقد قال تعالى على لسان هود عليه السلام معاتباً لهم: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (128) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ **[الشعراء: 128-129]**، والريع: الطريق، وقيل الموضع المرتفع من الأرض، وقيل الفج بين الجبلين، وأما المصانع: قيل القصور المشيدة، وقيل مصانع للماء

(1) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، (16/ 24).

(2) انظر: فتح القدير، الشوكاني، (308/3).

(3) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، (ص 485).

(4) الأحقاف: " جمع حقف من الرمل، والعرب تسمّي الرمل المعوجّ حقافاً وأحقافاً... والأحقاف رمل فيما بين عمان إلى حضرموت، وقال قتادة: الأحقاف رمال مشرفة على البحر بالشّحر من أرض اليمن" انظر: معجم البلدان، شهاب الدين الحموي، (1/ 115).

(5) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي، (15/ 385).

(6) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، (20/ 45).

تحت الأرض، وقيل: بروج الحمام [1] وفي موضع آخر قال تعالى: ﴿ **الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ**﴾ **[الفجر: 8]**، أي: لم يخلق فى البلاد كلها مدينة كمدينتهم عمراناً وبنياناً [2].

ومن خلال الوصف القرآني لحضارة عاد تبين أنهم كانوا مخصوصين في الدنيا بنوعين من الكمال، أحدهما: أنهم كانوا في غاية القوة والبطش، والثاني: أن بساتينهم ومزارعهم كانت في غاية الطيب والبهجة [3]، حيث كانا سببان في قيام حضارتهم وازدهارها، والتفصيل في الآتي:

أولاً: قوة الأبدان وشدة البطش

عُرف قوم عاد بشدة قوتهم وضخامة أجسامهم وبيوتهم ذات الأعمدة التي تُرفع عليها خيامهم ومبانيهم الفارهة [4]، فقد قال تعالى فيهم: ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ**﴾ **[الفجر: 6-8]**، حيث جاءت الآيات الكريمات للعبرة والعظة لما حلّ بعاد، أي: انظر بقلبك وبصيرتك كيف فعل بهذه الأمم الطاغية [5].

فقد كانوا أعظم أهل زمانهم خَلْقًا، وأطولهم أبدانًا، وأشدَّهم بطشاً، وقد جعلهم الله عز وجل خلفاء في تعمير الأرض، بعد قوم نوح، فكانوا أول أمة اضطلعت بالحضارة بعد الطوفان، فكانوا أعظم الأمم وأصحاب السيادة [6]، قال الله عزّ وجلّ: ﴿ **وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً** ﴾ **[الأعراف: 69]**.

ثانياً: العطاء الرباني

فتحَ الله عليهم أبوابَ رزقِهِ؛ وأمدهم بكل أسباب القوة فزادَت أموالُهم؛ وكثُر أبناؤُهم؛ وأنبتَ الله لهم الزروعَ؛ وفجَّر لهم العيون، وأمدهم بالأنعام، وهذه النعم هي رمز لقوة المال، وفيها رغد العيش، ومتعة النفوس [7]، قال لهم نبيُّهم مذكراً لهم بنعم الله عليهم في قوله تعالى: ﴿ **أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ** ﴾ **[الشعراء: 133- 134]**.

المطلب الثاني

عوامل انهيار حضارة عاد

قابل قوم عاد كل هذا النعيم بالإجحاف والجحود، فكان الانهيار مصير حضارتهم، والفناء نصيبهم، ومن عوامل انهيار حضارتهم ما يلي:

أولاً: تكذيب الرسل:

لقد دعاهم نبيهم المُرسل إليهم هود عليه السلام إلى الإيمان والتوحيد قال تعالى: ﴿**وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**﴾ **[هود: 50]**، أي: أخاهم في النسب لا في الدين، حيث دعاهم لتوحيد الله وعدم الإشراك به، وترك الأصنام التي يعبدونها فإنها حجارة لا تضر ولا تنفع [8].

(1) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، (13/ 123).
(2) تفسير المراغي، المراغي، (30/ 143).
(3) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، (18/ 363).
(4) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي، (15/ 385).
(5) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، (ص: 923).
(6) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، (8 / 205).
(7) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة، (10/ 5385).
(8) انظر: لباب التأويل في معاني التنزيل، الخازن، (2/ 489).

IUG Journal of Humanities Research (Islamic University of Gaza) / CC BY 4.0

حيث تمثلت دعوته عليه السلام بكلمة جامعة في البشارة بتحصيل السعادة الكاملة، حيث أمرهم بالاستغفار الذي فيه تكفير الذنوب السالفة، وبالتوبة عما يستقبلون من الأعمال، فمن اتصف بهذه الصفة يسر الله رزقه، وسهّل أمره وحفظ عليه قوته [1]، **قال تعالى: ﴿يا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلى قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: 52].**

وعلى الرغم أن الله عز وجل منح قوم عاد القوة والبطش الشـــديد، والطول المديد، والأرزاق الدارة، والأموال والجنات والعيون، والأبناء والزروع إلا أنهم كذبوا رسـولهم هود عليه السـلام [2]، قال تعالى: **﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشـعراء: 123]**، وجاء التعبير القرآني بالجمع؛ للدلالة على " أن تكذيب رسول واحد تكذيبٌ لكل الرسل؛ لأنهم جميعاً جاءوا بقواعد وأصول واحدة في العقائد وفي الأخلاق" [3].

ثانياً: الجبروت والطغيان

قال تعالى: **﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ [الشـعراء: 130]**، يقول أبو زهرة: " الخطاب لعاد قوم هود، وهو وصـف لحالهم وهو أنهم جبابرة في طغيانهم، والتجبر، يدفع إلى الأذى والسـيطرة بالباطل، والتدابر والتقاطع وإن هذه حالهم، القوي فيهم يأكل الضعفاء، فالحقوق مهضومة، والباطل رافع رأسه فيهم" [4]، لذلك انهارت حضارتهم وطُمس تاريخهم.

ثالثاً: التفاخر والانشغال بالدنيا

عاتب هود عليه السـلام قومه؛ لتفاخرهم بأمور الدنيا، وإعراضـهم عن الفكر في الآخرة والعمل لها والنظر في العاقبة، وإشراكهم بالله الذي أعمرهم في الأرض وزادهم قوة على الأمم، فانصرفت همتهم إلى التعاظم والتفاخر واللهو واللعب [5] قال تعالى: **﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَـانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ (الشـعراء: 128-129)**، أي: تَعْبَثُونَ ببنائها إذ كانوا يهتدون بالنجوم في أسفارهم فلا حاجة لتلك الأبنية، فقد أصبحت أبنية للعبث بمن يمر عليهم، أو قصوراً يفتخرون بها، ويتخذوا من الحصون والقلاع كأنهم مخلّدون في الدنيا [6].

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: 15]، فكان نتيجة هذا الاستكبار والجحود عذاب أليم استأصل الله عز وجل فيه أصلوهم، وطمس هوية حضـارتهم فأرسـل الله عليهم ريحاً صـرصـراً عاتية قال تعالى: **﴿فَأَرْسَـلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَـاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴾ [فصلت: 16]** ، أي" عاصـفة شـديدة الصـوت، من الصـرة وهي الصـيحة" [7]، وجاء وصـف الريح بالعقيم في قوله تعالى: **﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَـلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ* مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا**

(1) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (4/ 329).
(2) انظر: المرجع السابق، (6/ 152).
(3) الخواطر، الشعراوي، (17/ 10630).
(4) زهرة التفاسير، أبو زهرة، (10/ 5384).
(5) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، (19/ 165).
(6) انظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، (4/ 145)، تفسير المراغي، المراغي، (19/ 86).
(7) معالم التنزيل في تفسير القرآن، البغوي، (7/ 169).

﴿جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: 42-41] والعقيم هي التي لا خير فيها ولا بركة ولا تلقح شجراً ولا تحمل مطراً تحول كل شيء أتته من بشر وحجر وشجر وأنعام إلى هالك بالي، كالتراب المدقوق [1].

المبحث الثالث

عوامل قيام وانهيار الحضارة عند مملكة سبأ

ويتكون من مطلبين:

المطلب الأول: مرحلة التغيير الحضاري الإيجابي.

المطلب الثاني: مرحلة الكفران بالنعمة.

تعد حضارة سبأ إحدى أكبر حضارات شبه الجزيرة العربية، وسبأ أرض باليمن مدينتها مأرب، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيّام، وسميت هذه الأرض بهذا الاسم، لأنّها كانت منازل ولد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، ومن قحطان إلى نوح عليه السلام، وكان اسم سبأ عامراً، وإنّما سمّي سبأ؛ لأنّه أوّل من سبى السّبي، وقيل أن هذا الموضع سمّي سبأ؛ لحرارته [2]، وقد كان لمملكة سبأ حضارة عظيمة جداً تحدث القرآن الكريم عنها بإبراز أهم مقوماتها.

حيث تميزت مملكة سبأ بموقع استراتيجي وطبيعة مناخية وتضارسية ساهمت في قيام حضارة عريقة فيها، حيث عاش السبئيون في منطقة مشهورة بجمالها وكثرة خيراتها، كما وصفها القرآن، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: 15]، فقد كانت أرضهم أرضاً خصيبة، تأتيها المياه من مسيرة عشرة أيام حتى يُحبس بين جبلين، فيسقون بساتينهم وأشجارهم، فأخصبوا، وكثرت أموالهم، واتخذوا من الجنان ما شاؤوا [3]، ويقول الشوكاني واصفاً جمال سبأ: "كانت المرأة تمشي فيهما وعلى رأسها المكتل، فيمتلئ من أنواع الفواكه التي تتساقط من غير أن تمسها بيده" [4].

ومن خلال تتبع أقوال المفسرين للآيات التي ذكرت قصة مملكة سبأ في سورتي النمل وسبأ، تبين أن مملكة سبأ مرت بمرحلتين متناقضتين إيمانياً، وحضارياً هما:

المطلب الأول

مرحلة التغيير الحضاري الإيجابي

تبدأ المرحلة الأولى لمملكة سبأ بحكم ملكتها الأريبة بلقيس، التي مكّن الله لها رغم كونها على ملة الكفر ابتداءً، فقد توفرت لها مقومات الحضارة وأسباب القوة، فأحسنت القيادة، وجادت في النهاية، ومن أبرز عوامل قيام حضارتها ما يلي:

أولاً: قوة ملكة سبأ:

أشار القرآن الكريم إشارة واضحة إلى إحكام هيمنة ملكة سبأ [5] على مملكتها وكمال التمكين لها، فقد قال تعالى في نبأ الهدهد لسيدنا سليمان عليه السلام: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: 23]، أي: تملك

(1) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، (3/ 144).

(2) انظر: معجم البلدان، هاب الدين الحموي، (3/ 181).

(3) انظر: بحر العلوم، السمرقندي، (3/ 84).

(4) فتح القدير، الشوكاني، (4/ 367).

(5) هي بلقيس بنت شرحبيل وكانت ملكة لمملكة سبأ، انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة، (10/ 5447).

قبيلة سبأ امرأة ملكت أعظم ما يؤتاه الملوك من الأموال والسلاح والجنود والحصون والقلاع، وعرشاً عظيماً، وعِظم العروش يدل على عظمة المملكة والملوك وقوة سلطانهم وكثرة رجال الشورى [1]، وهذا لا يوجد مثله إلا في الممالك العظمى، ودليل من أكبر الأدلة على عظمة الملك وسعة رقعته ورفعة شأنه بين الممالك [2].

وقوله تعالى: (وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ)، أي:" أُوتيت من متاع الدنيا ما يحتاج إليه الملك المتمكن" [3]، ويقصد بالعرش في قوله تعالى:**﴿ولها عرش عظيم﴾** " مكان جلوس الملك، وكان العرش عادة يتوافق مع عظمة الملك" [4]، وقد كان مزخرفاً بالذهب، وأنواع الجواهر واللآلئ، واستعظام الهدهد لهذا العرش على ما رأى من عظمة ملك سليمان عليه السلام، يحتمل أنه استعظم ذلك بالنسبة إليها، أو أنه لم يكن لسليمان عليه السلام مع عظم ملكه مثل عرشها [5].

ثانياً: القوة العسكرية للجيش السبأي:

ومن مظاهر حضارة سبأ وجود جيش قوي ذي بأس شديد، ففي حكاية القرآن على لسان المجلس الوزاري لمملكة سبأ، قال تعالى: **﴿ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [النمل: 33]**، أي: " ذو القوّة على القتال، والبأس الشديد في الحرب" [6]، وقال البيضاوي:" أُولُوا قُوَّةٍ بالأجساد والعدد، وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ نجدة وشجاعة" [7]، وزاد النسفي أن المراد بالقوة هنا هو امتلاكهم للآلات والمعدات الحربية [8].

ثالثاً: عبقرية ملكة سبأ

حازت ملكة سبأ خصال الملوك وجمعت أنواع المحامد والمحاسن، فكان جزءٌ من مملكتها إرثاً من الملوك الذين سلفوها، ومنه ما كان كسباً من كسبها واقتنائها؛ لأن الله عز وجل وهبها عقلاً راجحاً وحكمة، فأحسنت استغلال ما منحها الله إياه من بلاد خصبة وفيرة المياه؛ لذلك كان اليونان يلقبون مملكة اليمن بالعربية السعيدة [9].

وتتجلى عبقرية ملكة سبأ في كيفية إدارتها للأزمة التي واجهت مملكتها مع سليمان عليه السلام، حيث جمع الله عز وجل لسيدنا سليمان عليه السلام النبوة والملك في آن واحد، وعُلّم من عجائب الأمور الكثير، ومن عجائبه قصته مع مملكة سبأ وملكتها[10]، حيث عرضت جملةُ آيات من سورة النمل وصفاً رائعاً لحضارة سبأ، وأبرزت دور ملكتها في المحافظة عليها في حوار دار بين سليمان عليه السلام والهدهد، وقد كان مُعنفاً له، فأجابه الهدهد؛ ليدرأ عن نفسه العقاب في قوله تعالى: **﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: 22]**، أي:" أدركت مُلكاً لم يبلغه ملكك " [11]؛ لأن معرفة أحوال الممالك والأمم من أهم ما يُعنى به ملوك

(1) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، (ص: 604).
(2) انظر: تفسير المراغي، المراغي، (19/ 132).
(3) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (6/ 186).
(4) الخواطر، الشعراوي، (17/ 10771).
(5) انظر: لباب التأويل في معاني التنزيل، الخازن، (3/ 343).
(6) جامع البيان، الطبري، (19/ 453).
(7) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، (4/ 159).
(8) انظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي، (2/ 603).
(9) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، (19/ 253).
(10) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني، (2/ 373).
(11) جامع البيان، الطبري، (19/ 445).

الصـــلاح ؛ ليكونوا على اســتعداد بما يفاجئهم، ويكون من دواعي الازدياد من العمل النافع للمملكة بالاقتداء بالنافع وتجنب الخلل بمشاهدة آثار مثله في غيرها [1].

فلما ضـمن الهدهد إصـغاء الملك إليه أخذ في تفصـيل النبأ اليقين الذي جاء به من مملكة سـبأ اليمنية، فذكر أنه وجدهم تحكمهم امرأة قال تعالى: **﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: 23]** ، والمفاجئة الأخطر سماعه أن الملكة وقومها لا يهتدون إلى عبادة الله العليم الخبير[2] ، يقول الطبري: وجد الهدهد ملكة سبأ، وقومها يسجدون للشمس فيعبدونها من دون الله، وقد حسَّـن لهم إبليس عبادتهم الشـمس، فمنعهم بتزيينه لهم أن يتبعوا الطريق المسـتقيم، وهو دين الله الذي بعث به أنبياءه[3]، قال **تعالى:﴿ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: 24]**، وعلى إثر ذلك احتوى سـليمان عليه السـلام هذه الأزمة الفكرية بإرسـال كتاب لملكة سـبأ يدعوها فيه للإســلام، قال تعالى: ﴿ اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ **[النمل: 28]**، وكان نص الكتاب في قوله تعالى: **﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل: 30، 31].**

بهذا الكتاب أصـبحت ملكة سـبأ ومملكتها في أزمة تحتاج لحلول وقرارات صـائبة؛ لكي تحافظ على صـعود حضـارتها، ونهضة شعبها، وقد تمثلت في اتخاذها للإجراءات التالية:

1- **صـــراحتها مع شـــعبها بإخبارهم بخطورة الموقف: قال تعالى: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ [النمل: 29]**، فعندما ألقى الهدهد عليها كتاب سليمان عليه السلام علمت من ألفاظه أنه ليس ملكاً كسائر الملوك، فوصفته " بالكرمِ؛ لكرمِ مضمونِه أو؛ لكونِه من عندَ ملكٍ كريمٍ أو؛ لكونِه مختوماً أو؛ لغرابةِ شأنِه ووصولِه إليها على منهاجٍ غيرِ معتاد" [4]، فكانت في منتهى الصراحة مع شعبها، وهذا يدل على التحضر الأخلاقي الذي تميزت به.

2- **طلب المشـــورة من أهل الحل والعقد: قال تعالى: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْـهَدُونِ﴾ [النمل: 32]** حيث سـارعت الملكة بتشـكيل فريق أزمات من أصـحاب الرأي والمشـورة للتباحث في أمر كتاب سـليمان عليه السـلام، وقوله تعالى: **(أَفْتُونِي)**: أي" أشـيروا عليّ بما عندكم من الرأي والتدبير فيما حدث" [5]، يقول أبو زهرة: واتخذت ملكة سـبأ خطابها مع أشـراف قومها وذوي الرأي فيهم الذين يولون ويعزلون، وامتازت بحسـن المشـاورة إلى جانب البراعة في المناورة، فلم تكن متسـلطة في أحكامها [6]، على الرغم من أنه كان بمقدورها أن تكتفي برأيها، لكن ببصـيرتها النيّرة كانت تسعى لتحقيق مصلحة الجماعة.

3- **دراسـة الحلول المطروحة:** قامت الملكة الفطنة بدراسـة رأي مجلسـها الوزاري القائم على مقابلة كتاب سـليمان عليه السـلام بالمواجهة العسكرية بكل تفهم وتقدير للموقف، وهي مدركة لصـعوبة المواجهة، وغير مغترة بهيبتها، **قال تعالى على لسـانها: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَـدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: 34]** ، حيث أبدت لهم رأيها

(1) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، (19/ 249).
(2) انظر: إدارة الأزمات من وحي القرآن، د.صبحي اليازجي، (ص39).
(3) انظر: جامع البيان، الطبري، (19/ 447).
(4) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود، (6/ 283).
(5) تفسير المراغي، المراغي، (19/ 136).
(6) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة، (10/ 5451).

IUG Journal of Humanities Research (Islamic University of Gaza) / CC BY 4.0

مفضلة جانب السلم على جانب الحرب، وهي تحذر من الدخول تحت سلطة سليمان عليه السلام؛ لأنها تعلم بقياس شواهد التاريخ وبخبرتها طبائع الملوك إذا تصرفوا في مملكة غيرهم أن يقلبوا نظامها ويقصوا حكامها، إلى ما يساير مصالحهم، ثم يبدلون القوانين والنظم التي كانت تسير عليها الدولة [1].

4- **استخدام الحلول الودية:** خالفت الملكة وزراءها الرأي عندما أشاروا عليها باللجوء إلى القوة، وارتأت بأن ترسل إلى سليمان هدية؛ لتقف على حقيقة قدرات سليمان عليه السلام واختبار صبره ومستوى ردود أفعاله حيال تصرفاته، **قال تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: 35]**، قال الشعراوي: قدمت ملكة سبأ هدية ثمينة؛ لتستميل الملك سليمان عليه السلام، فإن كان ملكاً يسعى إلى بعض الخراج والأموال فتكون قد جنبت قومها ويلات الحرب والمواجهة ، وإن كان نبياً فلن يقبل منها شيئاً، وهذا رأي جميل يدل على فطنتها وذكائها وحصافتها[2].

5- **إقرارها بالحق بعد حصول اليقين:** حرصُ الملكة على مملكتها لم يمنعها من اتخاذ القرار المناسب، حيث أعملت عقلها وقلبها، ولم تتردد في إعلان الإيمان بالله ونبيه، والاعتراف بفساد عقيدتها، لما استيقنت ذلك، **قال تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [النمل: 44]**، يقول طنطاوي: فاجأها سليمان عليه السلام بعظمة ملكه، وقدراتها الباهرة؛ لتزداد يقيناً بوحدانية الله تعالى، أن رأت جانباً من عجائب صنع الله، فاعترفت بفساد عقيدتها، وأسلمت لله طائعة مختارة، ويحسب لها أنها لم تسلم تخوفاً من سليمان عليه السلام وجبروته، وإنما قناعة منها بدعوة الحق وبذلك أسلم شعبها، بالتالي جنحت بفراستها وفطنتها؛ لالتماس النجاة الحقيقية لها ولمملكتها، بدلاً من الهلاك المحقق في ظلمات الكفر، أو في مواجهة خاسرة وغير متكافئة مع قوة الحق [3].

ومن مخرجات المرحلة الأولى تبين أن ملكة سبأ ضربت مثالاً يحتذى به في إدارتها لأزمتها مع النبي سليمان عليه السلام، وهي تعي موازين القوى، ودونما تضييع للوقت، محافظة على حضارة شعبها من انهيار محتم، بل وازدادت مملكتها رقياً وصعوداً.

المطلب الثاني

مرحلة الكفران بالنعمة

عاش أهل مملكة سبأ أعواماً مديدة في رخاء ورفاهية، وقد وصف القرآن الكريم جمال حياتهم في منتهى الدقة، وبين سبب رغدهم، قال الله تعالى: **﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: 15]**، فقد كانت أرضهم أرضاً خصيبة، وذلك لردم ردموه بين جبلين فحبسوا الماء، وكان يأتيهم من السيول فيسقون بساتينهم وأشجارهم[4] ، فأصبحت بلدتهم بلدة طيبة حيث " لم يكن فيها بعوض ولا ذباب ولا برغوث ولا عقرب ولا حية " [5].

يقول ابن عطية: " ورُوي أنه كان في ناحية اليمن واد عظيم بين جبلين وكانت جنتا الوادي منبت فواكه وزروع وكان قد بُني في رأس الوادي عند أول الجبلين جسر عظيم من حجارة من الجبل إلى الجبل فارتدع الماء فيه وصار بحيرة عظيمة، وأخذ

(1) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، (19/ 265).
(2) انظر: الخواطر، الشعراوي، (17/ 10780).
(3) انظر: التفسير الوسيط، الطنطاوي، (10/ 329).
(4) انظر: بحر العلوم، السمر قندي، (3/ 84).
(5) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، (3/ 575).

الماء من جنبتيها فمشى مرتفعاً يسقي جنتي الوادي.... وكانوا بهذه الحال في أرغد نعم، وكانت لهم بعد ذلك قرى ظاهرة متصلة من اليمن إلى الشام، وكانوا أرباب تلك البلاد في ذلك الزمان " [1].

في مقابل هذه النعم يتوجب عليهم شكر الله على نعمائه بالاستجابة لرسله، فقد أرسل الله عليهم رسلاً مبشرين ومنذرين، قال تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: 15]، "أي: غفور لكم إن استمررتم على التوحيد، لكنهم أعرضوا عن توحيد الله وعبادته وشكره على ما أنعم به عليهم، وعدلوا إلى عبادة الشمس " [2]، **فكان إعراضهم عن الحق سبب في انهيار حضارتهم وطمس هويتهم، وذلك بضربين من الهلاك هما:**

1- سيل العرم: قال تعالى: ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ [سبأ: 16]، فلما أعرضوا عن أمر الله واتباع رسله بعد أن كانوا مسلمين، عاقبهم الله بسيل العرم، حيث سال السيل بجنتيهم فتفرقوا في البلاد، وكان السيل نتيجة خلل بلغ السد ففاض الماء على أموالهم فغرقها ودفن بيوتهم[3]، يقول الزمخشري:" وضربت لهم الملكة بسدّ ما بين الجبلين بالصخر والقار، فحقنت به ماء العيون والأمطار، وتركت فيه خروقاً على مقدار ما يحتاجون إليه في سقيهم" [4].

واختلف المفسرون في سبب تسمية السيل بالعرم، ونرجح ما رجحه الطبري ؛ لدلالة سياق الآية حيث قال: والقول الأول أشبه بما دل عليه ظاهر التنزيل ، **وخلاصته** أن العرم: هو المسناة بلحن اليمن، وهي عصا غليظة ، حيث كانت تسد ثقباً ما بين الجبلين، فيُحبس الماء من وراء السد، وكان له أبواب بعضها فوق بعض ومن دونه بركة ضخمة، فيها اثني عشر مخرجًا على عدة أنهار، فلما يجيء المطر يحتبس سيله من وراء السد، وقد كانت ملكة سبأ من أشرفت على بناء السد حتى كان من شأنها وشأن سليمان عليه السلام ما كان، ولما أخبر الله تعالى أنه أرسل عليهم سيل العرم، أي: ثقبنا عليهم سدهم الذي كان يحبس عنهم السيول حين أعرضوا عن تصديق رسلنا، ولا يكون إرسال ذلك عليهم إلا بإسالته عليهم، أو على جناتهم وأرضهم [5].

فأبدلهم الله جنتيهم ذات القطوف الدانية بذواتي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قال تعالى: ﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾[سبأ:16]، "وهذه الأشجار تبين دوام الخراب، وذلك؛ لأن البساتين التي فيها الناس يكون فيها الفواكه الطيبة بسبب العمارة فإذا تركت سنين تصير كالغيضة والأجمة تلتف الأشجار بعضها ببعض وتنبت المفسدات فيها فتقل الثمار وتكثر الأشجار" [6]، "والخمط: ضرب من الأراك له حمل يؤكل، وقيل هو كل شجر ذي شوك فيه مرارة، وقيل كل ما تغير إلى ما لا يشتهى، ويقال: واللبن خمط إذا حمض [7]، أما الأثل: نوع من الطرفاء لا يكون عليه ثمر إلا في بعض الأوقات، والسدر قال فيه قليل ؛ لأنه كان أحسن أشجارهم فقلله الله، ثم بين الله أن ذلك كان مجازاة لهم على كفرانهم [8]، **قال تعالى:﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ [سبأ: 17].**

(1) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية، (4/ 413).
(2) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (6/ 507).
(3) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، (14/ 288-285).
(4) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، (3/ 576).
(5) انظر: جامع البيان، الطبري، (20/ 379-383).
(6) مفاتيح الغيب، الرازي، (25/ 201).
(7) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، (14/ 287).
(8) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، (25/ 201).

2- **المباعدة بين الأسفار**: لقد أنعم الله عليهم بالتوسعة والأمان، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾[سبأ: 18]، فقد كانت قراهم متواصلة البنيان يُرى بعضها من بعض؛ لتقاربها فهي ظاهرة لأعين الناظرين وظاهرة للسابلة، لا تبعد عن مسالكهم، وجعل عز وجل هذه القرى على مقدار معلوم يقيل المسافر في قرية ويروح في أخرى، آمنين لا يخافون عدواً ولا جوعاً ولا عطشاً وإن تطاولت مدة سفرهم، فبطروا النعمة وملوا العافية فطلبوا الكد والتعب وقالوا ياليتها كانت بعيدة فنسير على نجائبنا ونربح في التجارات ونفاخر في الدواب والأسباب [(1)]، قال تعالى: ﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: 19]، أي: فلما بطروا وأشروا أخزاهم الله وعاقبهم، وأصبحوا عبرة لمن بعدهم يتحدثون بأمرهم وشأنهم، ويتعجبون من أحوالهم [(2)]، وتفرقهم في البلاد حيث إنه " لما غرقت قراهم تفرقوا في البلاد فأما غسان فلحقوا بالشام ومر الأزد إلى عمان وخزاعة إلى تهامة ومر الأوس والخزرج إلى يثرب، وكان الذي قدم منهم المدينة عمرو بن عامر، وهو جد الأوس والخزرج ولحق آل خزيمة بالعراق"[(3)].

وما سبق تبين أن حضارة مملكة سبأ كانت نموذجاً لسنة الله في الأرض بالتغيير الاستبدال، فسُنة التغيير والاستبدال من السنن البارزة في تفسير حركة الحضارات على مر العصور وبيان أسباب سقوطها، والتغيير هو الانتقال من حال إلى آخر، فقد يكون التغيير إيجابياً كما حدث مع الملكة بلقيس في المرحلة الأولى للمملكة، فانتهى بها الأمر إلى التمكين.

وقد يكون التغيير سلبياً أي من الحال الحسن للحال السيء أو الأسوأ، كما في المرحلة الثانية، ودليله قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11]، "أي إن الله لا يغير ما بقوم من نعمة وعافية فيُزيلها عنهم وينتقم منهم إلا بتغيير ما بأنفسهم بأن يكون منهم الظلم والمعاصي والفساد وارتكاب الشرور والآثام التي تهدم بنية المجتمع وتدمر كيان الأمم" [(4)]، وفي موضع آخر يقول تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[الأنفال: 53].

ويترتب على هذا التغيير التواكلي والسلبي قانون الاستبدال، واستبدال الحضارات يكون بانتهاء الأجل، قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف: 34]، أي: أي جماعة اجتمعت على تكذيب رُسل الله، وردِّ نصائحهم، والشرك بالله، مع متابعة ربهم حججه عليهم، فإن لهم وقت لحلول العقوبات بساحتهم، ونزول المثُلات بهم على شركهم، فإذا جاء الوقت الذي وقّته الله لهلاكهم، وحلول العقاب بهم لا يتأخرون بالبقاء في الدنيا، ولا يُمَتَّعون بالحياة فيها عن وقت هلاكهم وحين حلول أجل فنائهم [(5)].

وقد ذكر ابن خلدون في مقدمته أن الدول تمر بعدة تطورات من ناحية العمران والسياسة والاقتصاد، وما ينبني عليه من تطورات في العظمة والقوة والاتساع، وبذلك قرر أن كل دولة تنتقل بين خمسة أطوار هي: الظفر، والانفراد بالمجد، ثم الفراغ والدعة، ثم طور القنوع والمسالمة، ثم الإسراف والتبذير، والأطوار الخمسة تمرُّ بثلاثة أجيال، فالجيل الأول يقوم بعملية البناء

(1) انظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي، (3/ 60).
(2) انظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن، البغوي، (6/ 396).
(3) لباب التأويل في معاني التنزيل، الخازن، (3/ 446).
(4) التفسير المنير، الزحيلي، (13/ 124).
(5) انظر: جامع البيان، الطبري، (12/ 405).

IUG Journal of Humanities Research (Islamic University of Gaza) / CC BY 4.0

والعناية، والجيل الثاني يقلد الأول، أما الجيل الأخير فيمكن تسميته بالجيل الهادم، ويشير أيضاً إلى أن الترف أول علامات السقوط، وسبب رئيس في استبداد الحكام وظلمهم للرعية، وهذه صفة الجيل الهادم للدول والحضارات [1].

ونخلص من قصة مملكة سبأ بمرحلتيها أن العامل الإيماني سبب رئيس في استمرار وصعود الحضارات، أو أفولها وهذا ما جسده الواقع، حيث إن مملكة سبأ لما اختارت الحق طريقاً زادهم الله علواً، وعندما أعرضوا وبطروا وجانبوا الحق انهارت حضارتهم وأصبحت أحاديث وأمثال تُضرب للعبرة.

وفي خاتمة بحثنا نذكر فيها أهم النتائج والتوصيات التي تم التوصل إليها وذلك فيما يأتي:

أولاً: أهم النتائج:

1- ذكر القرآن الكريم جملةً من العوامل الهامة الدالة على صعود الحضارة الإسلامية؛ حتى يتبين للناس بالدليل القاطع والبرهان الواضح أن حضارة الإسلام حازت الشرف والرفعة فوق كل الحضارات.

2- النماذج القرآنية للأمم والأقوام السابقة بّينت انقسام المجتمعات حضارياً باعتبارات ثلاث وهي (العلو، والركود، والتردي).

3- أشار القرآن الكريم إشارة واضحة لأهمية القيادة الرشيدة في تحديد بوصلة اتجاه الحضارات عُلواً وأُفولاً.

ثانياً: أبرز التوصيات:

1- أوصي بمواصلة البحث في هذا الموضوع لمن أراد أن يضيف جديداً من العبر والعظات.

2- العمل على إثراء المكتبة الإسلامية بالدراسات القرآنية، ولا سيما جوانب الحضارة الإنسانية التي تمس الواقع المعاصر؛ لما تمر به الأمة الإسلامية من صولات وجولات مع الباطل.

وأخيراً: أملنا أن نكون قد حققنا الفائدة المرجوة، فما أخطأنا فيه فمن أنفسنا، وما وُفقنا إليه فمن الله عز وجل.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

(1) انظر: تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، (1/ 221-219).

المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم.**

أولاً: قائمة المراجع العربية

1. إدارة الأزمات من وحي القرآن، صبحي رشيد اليازجي، *مجلة الجامعة الإسلامية بغزة-سلسلة الدراسات الإسلامية، 19* (2).
2. أسس الاقتصاد الإسلامي في القرآن الكريم، ياسر محمود أبو حسين، *مجلة الجامعة الإسلامية، 27*، (2).
3. اقتران الإيمان بالعمل الصالح في القرآن الكريم ودلالاته الحضارية،. عبد الرحمن حللي، *مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، 27* (3)، 2011م.
4. *أنوار التنزيل وأسرار التأويل* : ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، ط1، بيروت، 1418هـ.
5. *الإيمان بالقدر*، علي الصلابي، دار المعرفة، 2015م، ط1.
6. *بحر العلوم=تفسير السمرقندي*، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1993م.
7. *التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»*، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: 1393هـ)، الدار التونسية للنشر – تونس، 1984هـ.
8. *تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم*، أبو السعود العمادي محمد محمد مصطفى، (د.ط)، بيروت، دار إحياء التراث العربي، (د.ت).
9. *تفسير الشعراوي= الخواطر*، محمد متولي الشعراوي، ط1، مطابع أخبار اليوم، القاهرة، 1997م.
10. *تفسير القرآن العظيم* : أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، د.م، 1420هـ -1999م.
11. *تفسير المراغي*، أحمد بن مصطفى المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، ط1، 1365 هـ - 1946 م.
12. *التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج:* د. وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر، ط2، دمشق، 1418هـ.
13. *التفسير الوسيط للقرآن الكريم* : الدكتور محمد سيد طنطاوي، مطبعة السعادة، د.ط، د.م، 1397هـ - 1977م.
14. *تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان* : العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: محمد زهري النجار، طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، د.ط، الرياض – المملكة العربية السعودية، 1404هـ.
15. *جامع البيان عن تأويل آي القرآن* : الإمام ابن جرير الطبري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت – لبنان، 1421هـ - 2001م.

16. *الجامع لأحكام القرآن*، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم اطفيش، دار الكتب المصرية، ط2، القاهرة، 1384هـ - 1964 م.

17. *الحوافز الإيمانية بين المبادرة والالتزام*، عدنان علي رضا النحوي، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، 1992م.

18. *الدر المصون في علم الكتاب المكنون :* أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي، تحقيق: أحمد محمد الخراط، دار القلم، ط1، دمشق - سورية، 1406هـ - 1986م.

19. *ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر*، عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي، تحقيق: خليل شحادة، الناشر: دار الفكر، بيروت، ط2، 1408 هـ - 1988م.

20. *ذو القرنين القائد الفاتح والحاكم الصالح*، د. محمد خير رمضان يوسف، دار القلم الدار الشامية، 1999م.

21. *زاد المسير في علم التفسير:* جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، ط1، بيروت، 1422هـ.

22. *زهرة التفاسير*، محمد أبو زهرة، ط1، القاهرة، دار الفكر العربي، 2004م.

23. *صفوة التفاسير*، محمد على الصابوني، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1417هـ- 1997م.

24. *فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير :* محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، ط 1، دمشق، بيروت، 1414 هـ.

25. *في ظلال القرآن*، سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط32، 2008م.

26. *الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل:* أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، دار الكتاب العربي، ط 3 ، بيروت، 1407هـ.

27. *لباب التأويل في معاني التنزيل :* علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن، المعروف بالخازن، تصحيح: محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1415 هـ.

28. *المال والحكم في الإسلام*، عبد القادر عودة مال والحكم في الإسلام، عبد القادر عودة، الناشر: المختار الإسلامي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط5، 1397 هـ - 1977م.

29. مجموع *الفتاوى*, تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية, (د.ط), المدينة المنورة, مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف, 1416هـ.

30. *المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز :* أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت، 1422 هـ.

31. *مدارك التنزيل وحقائق التأويل :* أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، دار الكلم الطيب، بيروت، ط 1، 1419هـ - 1998م.

32. *معالم التنزيل في تفسير القرآن - تفسير البغوي*، الحسين بن مسعود بن محمد البغوي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ط1، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1420هـ.

33. *معجم البلدان*، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، ط1، بيروت، دار صادر، 1993م.

34. *مفاتيح الغيب = التفسير الكبير*، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري، ط3، بيروت، دار إحياء التراث العربي،1420 هـ.

35. *مقومات الحضارة وعوامل أفولها من منظور القرآن الكريم*، عمار توفيق أحمد بدوي، ط1، القاهرة، (د.ن)، 2005م.

36. *نظم الدرر في تناسب الآي والسور:* إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، د.ط، القاهرة، د.ت.

37. *نماذج من المدارس القيادية*، أ. د. صبحي رشيد اليازجي، (بحث محكم منشور)، 1432هـ،- 2011م.

ثانياً: قائمة المراجع المرومنة:

1. *Al-Durr Al-Masun fi Al-Kitab Al-Kitab Al-Kunun*(In Arabic), Ahmad bin Yusuf, known as Al-Samin Al-Halabi, investigation: Ahmad Muhammad Al-Kharrat, Dar Al-Qalam, 1st Edition, Damascus - Syria, 1406 AH - 1986 AD.
2. *Al-Kashf about the facts of the revelation and the eyes of gossip in the face of interpretation*(In Arabic). Abu Al-Qasim Mahmoud bin Amr bin Ahmed, Al-Zamakhshari Jarallah, Dar Al-Kitab Al-Arabi, 3rd edition, Beirut, 1407 AH.
3. *Al-Tafsir Al-Munir fi Al-Aqeedah, Sharia and Method*(In Arabic), Dr. Wahba bin Mustafa Al-Zuhaili, House of Contemporary Thought, 2nd Edition, Damascus, 1418 AH.
4. *Arrange Al-Durar in proportion to the verses and the fence*(In Arabic), Ibrahim bin Omar bin Hassan Al-Rabat bin Ali bin Abi Bakr Al-Beqai, Dar Al-Kitab Al-Islami, d.T, Cairo, d.T.
5. *Bahr al-Uloom = Tafsir al-Samarqandi*(In Arabic), Abu al-Layth Nasr bin Muhammad bin Ahmed bin Ibrahim al-Samarqandi, Beirut, Dar al-Kutub al-Ilmiyya, I 1, 1993 AD.
6. *Belief in Predestination*(In Arabic), Ali al-Sallabi, Dar al-Ma'rifa, 2015, AD, 1st.
7. Crisis management inspired by the Qur'an(In Arabic), Subhi Rashid Al-Yazji, *Journal of the Islamic University of Gaza, Islamic Studies Series, 19* (2).
8. *Dhul-Qarnayn, the conqueror and the righteous ruler*(In Arabic), Muhammad Khair Ramadan Youssef, Dar Al-Qalam Al-Dar Al-Shamiya, 1999 AD.
9. *Dictionary of Countries*(In Arabic), Shihab al-Din Abu Abdullah Yaqut bin Abdullah al-Roumi al-Hamawi, 1, Beirut, Dar Sader, 1993 AD.
10. *Diwan of the Beginner and the News in the History of the Arabs, the Berbers and Their Contemporaries with Great Relevance*(In Arabic), Abd al-Rahman bin Muhammad bin Muhammad, Ibn Khaldun Abu Zaid, Wali al-Din al-Hadrami al-Ishbili, achieved by: Khalil Shehadeh, Publisher: Dar al-Fikr, Beirut, 2, 1408 AH - 1988 AD.
11. *Examples of leadership schools*(In Arabic), a. Dr.. Sobhi Rashid Al-Yazji, (published refereed research), 1432 AH, - 2011 AD.
12. *Faith Incentives between Initiative and Commitment*(In Arabic), Adnan Ali Reda Al-Nahawi, Dar Al-Salaam for Printing, Publishing, Distribution and Translation, 1992.
13. *Fath al-Qadir, who combines the art of narration and the know-how from the science of interpretation*(In Arabic): Muhammad bin Ali bin Muhammad bin Abdullah al-Shawkani al-Yamani, Dar Ibn Katheer, Dar al-Kalim al-Tayyib, 1st edition, Damascus, Beirut, 1414 AH.
14. *Foundations of Islamic Economics in the Noble Qur'an*(In Arabic), Yasser Mahmoud Abu Hussein, The Islamic University Journal, 27, (2).

15. *In the Shadows of the Qur'an*(In Arabic), Sayed Qutb Ibrahim Hussein al-Sharbi, Dar Al-Shorouk, Beirut, Cairo, 32nd edition, 2008 AD.
16. *Intermediate Interpretation of the Noble Qur'an*(In Arabic), Dr. Muhammad Sayed Tantawi, Al-Saada Press, d.d., 1397 AH - 1977 AD.
17. *Interpretation of Al-Shaarawi = Al-Khawatir*(In Arabic), Muhammad Metwally Al-Shaarawi, I 1, Akhbar Al-Youm Press, Cairo, 1997 AD.
18. *Interpretation of the Great Qur'an*(In Arabic), Abu Al-Fida Ismail bin Omar bin Kathir Al-Qurashi Al-Basri and then Al-Dimashqi, investigation: Sami bin Muhammad Salama, Dar Taiba for Publishing and Distribution, 2nd edition, d.m, 1420 AH -1999 AD.
19. *Jami' al-Bayan on Interpretation of the Verses of the Qur'an*(In Arabic), Imam Ibn Jarir al-Tabari, Dar al-Fikr for Printing, Publishing and Distribution, 1, Beirut - Lebanon, 1421 AH - 2001 AD.
20. *Keys to the Unseen = The Great Interpretation*(In Arabic), Abu Abdullah Muhammad bin Omar bin Al-Hassan bin Al-Hussein Al-Taimi Al-Razi, nicknamed Fakhr Al-Din Al-Razi, Khatib Al-Rayi, 3rd Edition, Beirut, House of Revival of Arab Heritage, 1420 AH.
21. *Liberation and Enlightenment "Editing the Right Meaning and Enlightening the New Mind from the Interpretation of the Glorious Book*(In Arabic)," Muhammad Al-Taher bin Muhammad bin Muhammad Al-Taher bin Ashour Al-Tunisi (died: 1393 AH), Tunisian Publishing House - Tunis, 1984 AH.
22. *Majmoo' al-Fatwas*(In Arabic), Taqi al-Din Abu al-Abbas Ahmed bin Abdul Halim Ibn Taymiyyah, (d. i), Medina, King Fahd Complex for the Printing of the Noble Qur'an, 1416 AH.
23. *Milestones of Downloading in the Interpretation of the Qur'an - Tafsir Al-Baghawi*(In Arabic), Al-Hussein bin Masoud bin Muhammad Al-Baghawi, investigation: Abdul Razzaq Al-Mahdi, 1st Edition, Beirut, House of Revival of Arab Heritage, 1420 AH.
24. *Money and Governance in Islam*(In Arabic), Abdul Qadir Odeh Money and Governance in Islam, Abdul Qadir Odeh, Publisher: The Islamic Mukhtar for Printing, Publishing and Distribution, Cairo, 5th Edition, 1397 AH - 1977 AD.
25. *Perceptions of downloading and the facts of interpretation*(In Arabic), Abu Al-Barakat Abdullah bin Ahmed bin Mahmoud Hafez Al-Din Al-Nasfi, verified and narrated by his hadiths: Youssef Ali Badawi, Dar Al-Kalim Al-Tayyib, Beirut, 1, 1419 AH - 1998 AD.
26. *Safwat Al-Tafseer*(In Arabic), Muhammad Ali Al-Sabouni, Dar Al-Sabouni for printing, publishing and distribution, Cairo, 1, 1417 AH - 1997 AD.
27. *Tafsir Al-Maraghi*(In Arabic), Ahmed bin Mustafa Al-Maraghi, Mustafa Al-Babi Al-Halabi & Sons Library and Press Company, Egypt, 1, 1365 AH - 1946 AD.
28. *Taysir al-Karim al-Rahman in the interpretation of the words of al-Mannan*(In Arabic), the scholar Sheikh Abdul Rahman bin Nasser al-Saadi, investigation: Muhammad Zuhri al-Najjar, printed and published by the General Presidency of the Departments of Scientific Research, Ifta, Call and Guidance, d., Riyadh - Saudi Arabia, 1404 AH.
29. *The association of righteous faith in the Noble Qur'an and its civilizational implications*(In Arabic). Abdul Rahman Halili, Damascus University Journal of Economic and Legal Sciences, 27 (3), 2011 AD.
30. *The brief editor in the interpretation of the dear book*(In Arabic), Abu Muhammad Abd al-Haq ibn Ghalib ibn Abd al-Rahman ibn Tammam ibn Attia al-Andalusi al-Muharbi, investigation: Abd al-Salam Abd al-Shafi Muhammad, Dar al-Kutub al-Ilmiyya, 1, Beirut, 1422 AH.

31. *The chapter on interpretation in the meanings of the download*(In Arabic), Alaa Al-Din Ali bin Muhammad bin Ibrahim bin Omar Al-Shehi Abu Al-Hassan, known as Al-Khazen, Correction: Muhammad Ali Shaheen, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyya, 1, Beirut, 1415 AH.
32. *The Collector of the provisions of the Qur'an*, Abu Abdullah Muhammad bin Ahmed bin Abi Bakr bin Farah Al-Ansari Al-Khazraji Shams Al-Din Al-Qurtubi, investigation: Ahmed Al-Baradouni and Ibrahim Tfayesh, Dar Al-Kutub Al-Masryah, 2nd floor, Cairo, 1384 AH - 1964 AD.
33. *The foundations of civilization and the factors of its decline from the perspective of the Noble Qur'an*(In Arabic), Ammar Tawfiq Ahmed Badawy, 1st edition, Cairo, (d.n), 2005 AD.
34. *The interpretation of Abi Al-Saud = Guiding the sound mind to the merits of the Holy Book*(In Arabic), Abu Al-Saud Al-Emadi Muhammad Muhammad Mustafa, (d. T), Beirut, House of Revival of Arab Heritage, (d. T).
35. *The Lights of Revelation and the Secrets of Interpretation*(In Arabic), Nasir al-Din Abu Saeed Abdullah bin Omar bin Muhammad al-Shirazi al-Baydawi, investigation: Muhammad Abd al-Rahman al-Mara'ashli, House of Revival of Arab Heritage, 1st Edition, Beirut, 1418 AH.
36. *The path in the science of interpretation increased*(In Arabic), Jamal Al-Din Abu Al-Faraj Abdul Rahman bin Ali bin Muhammad Al-Jawzi, investigation: Abdul Razzaq Al-Mahdi, Dar Al-Kitab Al-Arabi, 1, Beirut, 1422 AH.
37. *Zahrat al-Tafsir*(In Arabic), Muhammad Abu Zahra, 1st Edition, Cairo, Dar al-Fikr al-Arabi, 2004 AD.